تحليل مضمون عينة من تعاريف ومفاهيم. التصوف في الإسلام

د. موسى بن ابراهيم حريزي
قسم علم النفس و علوم التربية
جامعة قاصدي مرباح / ورقلة

ملخـــــص

يسعى هذا البحث إلى تحليل مضمون عينة من تعاريف ومفاهيم التصوف من بين التعاريف الكثيرة، إذ التصوف ركن ثالث من أركان الدين ، وهو الإحسان ، ...أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فهو يراك ....وهو مستمد من نصوص شرعية مؤوّلة.

وقد توصل الباحث إلى أنّ التصوف يتضمن مفهومه ستة مجالات وهـــي: التعبد ، والفناء في الله ونكران الذات، والتميز والتفرد وأنّ الله آثرهم على غيرهم ، والرياضة لقهر الشهوات بالمعنويات ،والانعزال والفرار من الناس ،والحرية وهـــي الوصول إلى أعلى مراتب القرب إلى الله ، وأضعف المفاهيم للتصوف : الاهتمـــام بالخلائق وخلص الباحث في الأخير إلى تعريف شامل للتصوف وصفات التصوف بمفهومهما العام .

مقدمـــــــــة :

يعترف الصوفيون الإسلاميون: أنّ طريقتهم الصوفية الروحية مستمدة من مصدر الشريعة الإسلامية : الكتاب والسنة النبوية ،والسلف الصالح ، وبأدلة قطعية

ويعتبرون التصوف ركنا ثالثا من أركان الدين الإسلامي ، حسب الحديث القدسي ، وهو الإحسان إلى الله تعالى .

لقد أصبحت ظاهرة التصوف القديمة والجديدة ظاهرة دينية ثقافية ومعرفية ذوقية ذاتية وباطنية كشفية إلهية ، تحلّ في قلوب المتصوفة دون إعمّال العقل، يدفعهم ذلك إلى نشاط روحي خاص في مختلف مواقف الحياة ، وبذلك تختلف مفاهيم التصوف عندهم باختلاف أدلّة التشريع وتأويلاتها، وباختلاف الأزمنة والأمكنة وأمزجة الشخصيات المتصوفة من مواقف الحياة الروحية، أو الاجتماعية المتفتحة .

تهتمّ هذه الدراسة بتحليل حوالي 34 تعريفا مختلفا لغرض الوصول إلى مفهوم عام للتصوف مستهلين ذلك ببيان الفرق بين مصطلحي المفهوم ، والتعريف، ثمّ نستعرض عينة من تعاريف أو مفاهيم التصوف بين ما هو مختصر ومفصل، بغامضه وواضحه ثمّ نحلّلها بمنهج تحليل المحتوى بخطواته العامة والمختصرة في جداول تفريغية لموضوعاتها العامة حوالي 06 ستة موضوعات ثمّ نحلّلها بأدلّة شرعية إسلامية مجالا بعد مجال، لكي نصل إلى استخلاص عام لمفهوم التصوف وخطوات تحليل المحتوى هي:

1- تحديد أداة التحليل : وهي الجداول لرصد التكرارت، أوجمع البيانات .
2- تحديد فئات التحليل : الموضوعات أو المجالات في الخانات الأفقية
3- تحديد وحدات التحليل : ما يفرغ في كلّ خانة عموديا أو تكرار وحدات المجال
4- قياس وتفسير نتائج الرصد في كلّ وحدة أو جدول ويكون ذلك
   أ – بالمعالجة الإحصائية
   ب- بالمقارنة بين ما فرغ في الجداول
   جـ- إبراز الاتجاهات السائدة في مضمون عينة التحليل
   د- استخلاص النتائج .

نماذج من تعاريف التصوف لتحليل مضمونها :

نستعرض هنا في صدر هذه الدراسة بعض النماذج لتعاريف التصوف لكي نحللها ونستنبط منها بعض المفاهيم المتعلقة بالتصوف .

ولقد أورد القشيري في الرسالة القشرية – في علم التصوف – التصوف ما معناه ؟ ومن هو المتصوف ؟ وسنذكر ذلك في مضان هذا البحث ، وسنبدأ بعرض بعض التعاريف دون مراعاة منطق الترتيب .

1- تعريف معروف الكرخي (ت200 هـ) التصوف هو "الأخذ بالحقائق واليأس بما في أيدي الخلائق"

2- تعريف الداراقي (ت 215 هـ) التصوف هو " أن تجرى على الصوفي أعمال لا يعلمها إلاّ الحق" وأن يكون دائما مع الحق على حال لا يعلمها إلاّ هو " .

3- ويقول بشر الحافي (ت 227 هـ) " الصوفي هو من صفا قلبه لله"

4- ويقول ذو النون (ت 245 هـ) " الصوفية هم قوم آثروا الله عزّ وجل على كلّ شيء، فآثرهم الله عزّ وجل على كلّ شيء "

5- ويقول آخر " الصوفي لا يكدره شيء ، ويصفو به كلّ شيء "

6- ويقول سهل بن عبد الله التستري (ت 283 هـ) " إنّ الصوفي هو من يرى دمه هدرا ، وملكه مباحا ، وأنّ الصوفي من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكرة ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر " .

7- " والتصوف: قلّة الطعام ، والسكون إلى الله ، والفرار من الناس " .

8- وقال أحدهم في الصحبة " عليك بالصوفية فإنّهم لا يستكثرون شيئا ، ولكلّ فعل عندهم تأويل فهم يقدّرونك على كلّ حال " .

9- وقال حمدون في الصحبة أيضا " أصحب الصوفية ، فإنّ للقبيح عندهم وجوها من المعاذير ، وليس الحسن عندهم كبير موقع يعظمونه به "

10- وقال التستري (ت283 هـ) " الذي يلزم الصوفية ثلاثة أشياء : حفظ سرّه ، وأداء فرضه ، وصيانة فقره"

11- قال الجنيد (د. ت) حينما سئل عن التصوف " هو أن يميتك الحق عنك ويحيك به "

12- وقال " هو أن تكون مع الله بلا علاقة ".

13- والتصوف : " عنوة لا صلح فيها ، والتصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع "

14- وقال الجنيد (د ت) أيضا : " الصوفيه هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم "

15- وقال أيضا : " الصوفي كالأرض يطرح عليها كلّ قبيح فلا يخرج منها إلاّ كلّ مليح "

16- وقال كذلك " هو كالأرض يطؤها البار والفاجر ، وكالسحاب يظلّ كلّ شيء، وكالمطر يسقى كلّ شيء "

18- تعريف الكلا بأذى وينسبه للجنيد : " التصوف حفظ الأوقات ، وهو أن لا يطالع العبد غير حدّه، ولا يوافق غير ربه ولا يقارن غير وقته "

19- وقال أيضا : " الصوفي لحوق السرّ بالحق ، ولا ينال ذلك إلاّ بفناء النفس عن الأسباب لقوة الروح ، والقيام مع الحق "

20- سئل النووي (ت 295 هـ) عن التصوف فقال : " نشر مقام ، واتصال بقوام " وقيل له فما أخلاقهم ؟ قال " إدخال السرور على غيرهم ، والإعراض عن أناهم "

21- ويروي القشيري تعريفا واحدا للتصوف قاله النووي " نعت الصوفي: السكون عندهم العدم والإيثار عندهم الوجود " / على زيعور / ص 199

22- سئل الشبلي (ت:334 هـ) لم سميت الصوفية صوفية ؟ قال "لأنّها ارتسمت بوجود الرسم وإثبات الوصف ، ولو ارتسمت بمحو الرسم ، لم يكن إلاّ اسم الرسم ،

ومثبت الوصف ، فأحالهم على رسومهم ، وأنكر أن يكون للمتحقق رسم أو وصف" .

23- وللشبلي عن القشيري، أنّ التصوف : هو " الجلوس مع الله بلا همّ "

24- وتعريفه للصوفي هو أنّه " منقطع عن الخلق ، ملتصق بالحق ، كقوله تعالى " واصطنعتك لنفسي " قطعه عن كل غيره ثمّ قال له " لن تراني "

25- والصوفية : هم أطفال من حجر الحق " والتصوف ، برقة محرقة " وهو أيضا " العصمة عن رؤية الكون "

26- وعن الشبلي : لم سموا بالصوفية ؟ أجاب " لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما تعلّقت بهم تسمية" .

27- وللشبلي " التصوف ضبط حواسك ، ومراعاة أنفاسك "

28- والتصوف : التآلب والتعاطف " ومتى يكون الرجل مريد ؟ قال " إذا استوت حاله في السفر والحضر ، والمشهد المغيب "

29- قال ذو النون (ت 245هـ) : " أنّ الصوفي ينطق بالحقيقة (بالباطن) ، ويقطع علائقه بالعالم "

30- وكان سحنون يرى أنّ التصوف هو " أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء"

31- وكان عمرو بن عثمان المكي (ت 291 هـ) يرى معنى التصوف هو " أن يكون العبد في كلّ وقت مشغولا بما هو أولى به في الوقت "

32- والصوفي في نظر الحلاج يكون " وجداني الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحدا"

33-ولمجهول: " الصوفي لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سبب "

ومن هذه العينة من التعارف فإنّنا نعتبرها عينة كافية لهذه الدراسة لكي يتمّ تفريغها في جداول لتحليل مضمونها ، لغرض استنباط مفهوم عام للتصوف في الإسلام .

وبناء على التعاريف السابقة فإنّنا نحلل مضامينها إلى مجالات عامة أو موضوعات عامة نحصرها في جداول ، ومنها نستمرّ في خطوات التحليل والجداول هي كما يلي :

جدول رقم (1)	جدول رقم (2)	جدول رقم (3)
التعبد والفناء في الله والتضحية ونكران الذات	التميز، والتفرد، والاستعلاء	قهر الماديات والشهوات بالمعنويات (الزهد)
1- الأخذ بالحقائق . 2- أعمال لا يعلمها إلاّ الحق. 3- المتصوف يكون دائما مع الله 4- في حال لا يعلمها إلا هو 5- صفا قلبه لله . 6- آثروا الله على كلّ شيء. 7- السكون إلى الله . 8- أداء فروضه . 9- أن يكون مع الله بلا علاقة 10- عنوة لا صلح فيها. 11- ذكر مع اجتماع.	1- آثروا الله على كلّ شيء. 2- آثرهم الله على كلّ شيء . 3- صفا من الكدر . 4- حفظ سرّه . 5- هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم 6- لحوق السرّ بالحق . 7- كالأرض يطرح عليها كلّ قبيح ولا يخرج منها إلاّ كلّ مليح . 8- كالسحاب يظلل كلّ شيء . 9- كالمطر يسقى كلّ شيء . 10- التصوف أبرقة	1- ينطق بالحقيقة (الباطني) 2- ملكه مباحا . 3- امتلأ من الفكر (الوعي). 4- استوى عنده الذهب والمدر. 5- قلة الطعام. 6- صانه فقره . 7- فناء النفس عن الأسباب لقوة الروح. 8- التصوف ضبط حواسك. 9- أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء 10- لا يستكثرون شيئا.

12- وجد مع استماع . 13- وعمل مع اتباع . 14- والقيام مع الحق . 15- نشر مقام (بعث من الغفلة). 16- واتصال بقوام . 17- الايثار عندهم الوجود (التعبد). 18- الجلوس مع الله بلا همّ . 19-متصل بالحق . 20- أطفال من حجر الحق 21- التآلب والتعاطف. 22- أن يكون العبد في كلّ وقت مشغولا بما هو أولى به في الوقت . 23 لا يتعبه طلب ولا يزعجه سبب % 34.85	محرقة . 11- العصمة عن رؤية المكون . 12- ارتسمت بوجوه الرسم وإثبات الوصف. 13- لبقية بقيت في نفوسهم . 19.69	11- إذا رأيت الصوفي يعني بظاهره فاعلم أنّ باطنه خراب . % 16.67

جدول رقم (4)	جدول رقم (5)	جدول (6)
الانعزال والأنطواء	الاهتمام بالخلائق	الحرية
1- اليأس بما في أيدي الخلائق . 2- تنقطع علائقه بالعالم. 3- انقطع إلى الله من البشر . 4- الفرار من الناس . 5- الصوفي ينقطع عن الخلق . 6- وجداني الذات لا يقبل أحد . 7- الخروج من رق وقطع جميع العلائق والأغيار دون الله ، وهي أعلى مراتب القرب إلى الله %10.61	1- كالأرض يطؤها كلّ بار و فاجر. 2- أخلاقهم إدخال السرور على غيرهم . 3- والإعراض عن أناهم 4- لكلّ فعل عندهم تأويل فهم يقدرونات على كلّ حال . 5- للقبيح عندهم وجوه من المعاذير. 6- وليس للحسن عندهم كبير وقع يعظّمونه. %09.09	1- دمه هدر 2- السكون عندهم العدم 3- مراعاة أنفاسك . 4- استوت حاله في السفر والحضر. 5- والمشهد والمغيب . 6- لا يكدره شيء ولا يصفو به كلّ شيء. %09.09

تحليل الجداول أو تفسير نتائج الرصد :

إذا تأملنا الجداول الست سنجد أنّ مجموع عباراتها الصوفية 66 عبارة موزعة على عناوين الجداول حسب اجتهادنا ، وإن شاء الله لصائبون في التفريغ ، وأنّ كلّ جدول يمثل نسبة مئوية، حسب ما تحويه من مجموع العبارات .

تحليل الجدول رقم (1) : التعبد والفناء في الله، والتضحية، ونكران الذات

إذا تأملنا عبارات الجدول رقم (1) نجد معظمها ينصبّ على معنى نكران الذات والتضحية لله وحده ، وتعبد خالص له ، وخضوع مخلص : فلا ذكر للخوف من النار ، أو الهروب منها ، ولا ذكر للرجاء في الجنة ، والخلود فيها ، كما هو في تعبيرهم الطمانينة في الجلوس مع الله بلا همّ ، و يصفو قلبه لله ، وأن يكون مع الله بلا علاقة ، والمتصوف يؤثر الله على كلّ شيء ، ويلغي ذاته إلاّ من فكرة أنّه هو وسيلة لأداءات وأعمال لا يعلمها إلاّ الحق وحده ، ويكون دائما مع الله في كلّ وقت مشغولا بما هو أولى به في الوقت والحين بناء على قوله تعالى " وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون " آية 56 / سورة الذاريات ، فلا يتعبه طلب ولا يزعجه سبب ، متّصل بالحقّ دائما .

وإنّ هذا المفهوم في التصوف لا يتيسر لأيّ احد من البشر ، وإنّما يتيسّر بالإرادة والرياضة والارتياض وملازمة التفكير في الموجود الواجب الوجود ، وبقطع علائق المحسوسات ، كما يذكر ذلك ابن طفيل (1100-1185 هـ) :" يغمض عينيه ويسدّ أذنيه ، ويضرب جهده عن تتبع الخيال ، ويروم بمبلغ طاقته ألاّ يفكّر في شيء سواه ، ولا يشرك به أحد " (عبد الحليم محمود1985 / التفكير الفلسفي في الإسلام / ص 234).

في الحقيقة هذا السكون والهدوء النفسي ، وحصر التفكير إلاّ في الله ، ليس متاحا لجميع الناس وإنّما هو قدرة واستعداد لبعض البشر من المفكرين المتصوفة ، حيث أنّ لهم القدرة على تلك الرياضة الروحية التي هي أشبه باليوغا- مع فارق في المبادئ والأهداف- وإنّ هذا الاستعداد قد يكون له جذر في الذكاء والعقل المجرد ، والتفكير في الغيبيات ، أو الذكاء الخاص بالإضافة إلى المحيط الثقافي ، والتنشئة الاجتماعية الإسلامية .

إنّ التصوف عند الإنسان لا ينشأ من فراغ ، ولا ينشأ بالفطرة لوحدها ، وإنّما يدعم بالرياضة وبتكريس النفس على تقوى الله ، وإجلال عظمته في النفس ومحاربة الجانب السلبي فيها، من شهوات ومحسوسات زائلة، وتقوية جانب الاتكال على الله بصورة مطلقة ، كما هو واضح في وصية رسول الله (ص) لابن عباس : قائلا له : ".....إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك ...الخ الحديث " (نجاتي 1993 / الحديث النبوي وعلم ن/ص 280)

كما أنّ التصوف قد يتبين لنا مفهومه من خلال قول رسول الله (ص) عن حنظلة الاسيدي، وكان من كتاب رسول الله (ص) – قال : يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار ، والجنة كأنّا [نراهما] رأي العين فإذا خرجنا من عندك عافستنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيرا فقال رسول الله (ص) :" والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي في الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم ، وفي طرقاتكم ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ، ثلاث مرات" أخرجه مسلم والترميذي (المرجع السابق / ص 136) أي أنّ جميع الملذات والشهوات تنحصر في الأزواج والأولاد والضيعات (الأموال والتجارة) وما يربي النفس هو الرياضة والتدريب (ساعة وساعة) وإن قول الله سبحانه وتعالى يدعم مفهوم التصوف في الإسلام وهو قوله " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطا " /28 الكهف .

إنّ هذه الآية تجسّد معنى التصوف ، وقد ذكر ردايدة (2005) انّ التصوف هو السلوك والمسلك للوصول لغاية القرب إلى الله والمنى للحصول على نوره ، وهو تربية القلب والسريرة، والنفس وتطهيرها من الحظوظ والشكوك ،

والران والظنون للارتقاء إلى عالم الصفاء والنقاء والطهر ، والعامل الرئيسي في ذلك هو السلوك بطريق ذكر الله ابتداء بالأوراد والأذكار ، وانتهاء بحسن الوصل مع من ليس كمثله شيء .." / (ردايدة ، /ص 16-17).

كما أنّه يتوصل إلى ذلك بالسجود والاقتراب إلى الله، وهو رمز لمحو ونسيان الذات بالمرة، في الحضرة الإلهية، لكي يصل إلى ما يشير إليه الحديث القدسي لقوله (ص) ما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها " إنّ هذا الحديث ليلخّص المدار الكامل للصوفية .

إذا فالصوفية نور إلهي يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده وطعم خاص في الروح الإنسانية، فلا يستطيع أيّ شخص أن يتذوقها ، أو يعلل مفهومها ويطبع بها سلوكه على الدوام طوال حياته .

وعليه فإنّ هذا الجدول بكلّ مفاهيمه يجسّده عنوانه ، وهو يمثل نسبة 34.85 % أي أكثر ثلث مجموع مفاهيم التصوف في العينة المحللة .

تحليل الجدول رقم (2) : التميز والتفرد والاستعلاء

إذا تاملنا هذا الجدول فإنّنا نجده يختلف مفهومه عن مفاهيم ما في الجدول الأول في التصوف والمتصوف فإذا كانت مجمل مفاهيم الأول تعني الفناء في الله ونكران الذات ، فإنّ مفاهيم هذا الجدول تمثل مجمل مفاهيم الشعور بالذات والأفضلية والاستعلاء ، والإحساس بالتميز عن غيرهم وّالخصوصية والتفرد، ولم ينشأ هذا الإحساس الخاص من فكرة التكبر أو الاستكبار، إنّما نشأ من فكرة قوله تعالى " يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا " /269/ البقرة ، وقوله تعالى :"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " / 11

/ المجادلة. وإنّ هذا الأمر إختيار إلهي وطبيعي في البشر وغيرهم ، وإنّ عقلية وتفكير المتصوف تدخل في معنى الآيتين ، وأشباههما .

إنّ العقول والإدراكات والمشاعر تختلف بقدر ما تختلف النفوس في الدنيا، وما رواه عبد الله بن سلام عن الرسول (ص) يصدق ذلك، وقد جاء في آخر ما رواه –كما ذكره إبراهيم مصطفى إبراهيم (1993): " أنّ الملائكة قالت : يا ربّنا،هل خلقت شيئا أعظم من العرش ؟ قال: نعم العقل ، قالوا : وما مبلغ قدره ؟ قال : هيهات ، لا يحاط بعلمه ، هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا :لا، قال الله عزّ وجل : "فإنّي خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من اعطي حبة، ومنهم من أعطي حبتان ، ومنهم من أعطي الثلاث والأربع ، ومنهم من أعطي فرقا [إناء يكتال به] ، ومنهم من أعطي وسقا [حمل جمل، أو حمل النخلة] ومنهم من أعطي أكثر من ذلك"/ (إبراهيم مصطفى إبراهيم /ص: 75)

وفي نظري أنّ المتصوف قد أعطي وسقا ، أو أكثر من ذلك لأنّ له القدرة على النظر في العواقب، وعواقب الأمور الغيبية والأخروية، ممّا يجعل صاحبه متميّزا في أعلى مراتب العقل ، حسب تقسيم أبي حامد الغزالي (ت 505 هـ /– 1111 م) للعقل : أدناها العقل الغريزي ثمّ البديهي المنطقي، ثمّ المستفيد من التجارب ، وأعلاها العقل العارف بأمور الغيب، وهو العقل الحكيم والصائب ، ومعيار الغزالي في ذلك هو القدرة على معرفة عواقب الأمور ، ويحصل ذلك بقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلا ، من حيث إنّ إقدامه وإحجامه يكون بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب ...إذا فقدرة الإنسان على التنبؤ هي من صفات من له عقل حكيم، ورأى صائب / (إبراهيم / مفهوم العقل /ص:74) .

إنّ ما ذكره الغزالي في القسم الرابع هو مدار التعاريف الواردة في الجدول (2) حيث أنّ الصوفي من صفا من الكدر ، وهي الشهوات ، وملذات الدنيا

عامة ، والتصوف هو إحساس خاص لمجال آخر غير ما يشعر به أصحاب العقول الأخرى .

ومن هذا التحليل في حقيقة شعور المتصوف بأنّه متميز عن الآخرين بروحه النظيفة ، وأنّه حافظ لأسراره وأنّه كالأرض، وكالسحاب، وكالمطر هبة من الله .

وعليه فإنّ هذا الإحساس أو المفهوم في التصوف قد اخذ نسبة 19.69 % من جملة مفاهيم التصوف وصفة المتصوف حسب العيّنة المحللة .

تحليل الجدول رقم (3): قهر الماديات والشهوات بالمعنويات (الزهد)

إنّ عبارات هذا الجدول يفهم منها أنّ التصوف هو محاربة شهوات وملذات النفس كمفهوم التقليل من الطعام ، وضبط الحواس ، والميل إلى المسكنة والفقر ، وأنّ المتصوف لا يملكه شيء ولا يملك شيئا ، ويستوي في اعتبار عقله وفكره قيمة الذهب مع المدر ويمتلئ فكره ووعيه بالقدسية الإلهية ، وغير ذلك في الموضوع على حدّ وصف الجنيد (ت 297 هـ) :"إذا رأيت الصوفي يعتني بظاهره فاعلم أنّ باطنه خراب "//(زيعور/ العقلية الصوفية /ص199)

إنّ هذا المفهوم القهري الإرادي للمتصوف يشعره بأنّه القاهر لأعظم شرّ في الجانب الإنساني وهو جانب الماديات والشهوات الجسدية ، والعقلية، وذلك بمجاهدة النفس ، أو كما عبّر عنه الرسول (ص) " الجهاد الأكبر " ، " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وهو جهاد النفس " وكما في قوله تعالى " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين " /69/العنكبوت .

وقد يعتبر الكثيرون ممن لم يمر بتجربة التصوف بهذا المفهوم والإحساس بالطمأنينة وراحة البال، والتحرر من ريقة الشهوات وأنّ ذلك ذلّ وهوان لعزّة النفس في نظر الغير بينما الصوفي يحسّ بلذة قهر الشيطان المتمثل في جميع الماديات

والشهوات الزائلة ، ويظهر ذلك جليا عند المتصوفة الذين يرعبون عن الزواج، وعن التكاثر في الأموال والأولاد ، والموت في حالة الفقر مثل ما نجده عند بشر بن الحارث الحافي (ت 227 هـ) حيث مات ولم يترك شيئا ومثل عامر بن عبد قيس (د.ت) حيث أنّه لم يتزوج ولم يلد ، وروى عنه أنّه قيل له : لو تزوجت ثمّ سكت فقال: أخاف أن تقوم بحقي ، ولا أقوم بحقّها ، وقد قال تعالى :" ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف "/288 / البقرة ، وكان دائما يقول :" من لم يحتج إلى النساء، فليتق الله ، ولا يألف أفخاذهن، ولو أنّ رجلا جمع أربعة نسوة يحتاج إليهنّ ما كان مسرفا " بمعنى أنّ الشهوة واللذة لا حدود لها وقيل له " لم لا تتزوج ، وتخرج عن مخالفة السنة ، فقال " إنّي مشغول بالفرض عن السنة" يعني بالفرض " الركن الثالث " وهو الإحسان، وذلك بمجاهدة النفس وتصفيتها من الأخلاق الرديئة " / (شرف /دراسات ../ ص 137) .

ولا تسمح لنا أخلاقنا أن نفسّر هذا الجهد في الزهد في الشهوات ، والسلطة والمال من طرف المتصوف بأنّه عاجز عن الحصول عليها ، وزهده تعويض لذلك العجز حسب تفسير بعض علماء النفس أو استعلاء وتمحور حسب مفهوم المدرسة القرويدية (1856–1939 م) ومثل ذلك وهم في حقّهم ، بل هم الإرادة الكاملة ، والطاقة الواعية الشعورية ، كما وضّحنا في الجدول الثاني فيعتبرون ملكهم مباحا للمحتاجين، وصدقة جارية عليهم، واستوى عندهم الذهب والمدر ، ولا يستكثرون شيئا حيث القناعة كنز لا يفنى ، ويفعلون كلّ ذلك بوعي تام وشعور بما في الآخرة من ثواب ونعيم بينما التعويض والاستعلاء والتمحور سلوكات لاشعورية مريضة ولا يخطر ببال هؤلاء أنّهم غير عاديين .

وتبلغ نسبة هذا الجدول من المفاهيم 16.67 % من مجموع عبارات العينة .

تحليل الجدول رقم (4) : الانعزال والانطواء على النفس

إنّ نجاح الصوفي في قهر الشهوات والماديات والتكاثر والسلطة ، وإعلاء شأن المعنويات والغيبيات، معنى ذلك أنّه قد فتح بابا للانعزال عن المجتمع بكلّ ما يحمله المجتمع من دلالات وفعاليات، وعلاقات ، أي أنّ ذلك يسهّل بأن يقطع علائقه بالعالم الخارجي عن النفس، ويتفرّغ إلى الله لعبادته على حدّ تعبير الحلاج (244 – 309 هـ) : " الصوفي وجداني الذات لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحدا " .

إنّ الانعزال بالمفاهيم الصوفية مرتبط بالحرية التي سيأتي توضيحها ، وهو لصيق كذلك بمفهوم التميز والتفرد السابق تحليله ، وإنّ الشعور بالتميز غالبا ما يؤدي إلى الانعزال أو الفرار من الناس على حدّ تعبير التستري (ت 283 هـ): " التصوف قلة الطعام ، والسكون إلى الله، والفرار من الناس " //(زيعور / العقلية الصوفية /ص 199)

يبدو مبدئيا أنّ مفهوم الانعزال والفرار من الناس يختلف عن الانطواء الذي يميل البعض وصفهم بهذه الصفة النفسية التي تحمل مفهوما للمرض النفسي ، إذ أنّ الانطواء ذاتي أو الاكتفاء على الذات كما يحدد تعريفه أسعد رزوق (1979) وعلى حسب تفسير كارل يونغ (1917 م) ، الذي يدلّ على اتجاه الاهتمام صوب الداخل ، وإلى الذات بدلا من التوجه إلى الخارج ، نحو العالم والناس ، والأشياء (EXTRAVERSION) إذ تصدق هذه الظاهرة النفسية على ذلك النوع من مزاج الشخصية لدى الأفراد الذي ينصبّ اهتمامهم على أفكارهم الذاتية ، ومشاعرهم الخاصة عازفين عن العالم من حولهم ، ومنكمشين على أنفسهم ..." //(رزوق/موسوعة علم ن /ص 151) .

نلاحظ أنّ الفرق الكبير بين المصطلحين : الانطواء والانعزال حيث أنّ الانعزال يدلّ على الانفراد عن الغير ، والتفكير فيما هو خارج الذات ، أي في الله ، ونسيان الذات ، وإلغاءها تقريبا ، فهذا هو التصوف بينما الانطواء هو توجه نحو

الذات الداخلية ، ونسيان الناس والأشياء والعالم، فهو لا يمكن أن يعدوا ضمن المرضى نفسيا "

لقد وقع في هذا التفسير الخاطئ ، والخلط بين الصوفي المنعزل ، والمريض المنطوي أمثال علي زيعور (1979) حيث نسب صفة الانطواء على الصوفي المنعزل الصحيح نفسيا ، كما نلاحظ في ألفاظ التعريف فقال واصفا الصوفي " الانطوائية عمل نحو الداخل شديد البروز ، ولعله الصفة الأولى أو الأظهر في الصوفي ، ويتعكف الصوفي يمارس الاستبطان ، ويتعرف بنفسه على نفسه " (زيعور / العقلية الصوفية / ص 202) .

يبدو لنا أنّ نفسية الصوفي حسب التعابير في الجدول (4) هي على خلاف ذلك فلا وجود للانطواء أو الميل إلى الداخل في نفسية الصوفي بل نفسيته موجّهة بوعي خاص إلى الله خارج النفس ، فلا يمارس الاستبطان بقدر ما يمارس شعوريا وإراديا وبوعي دقيق التأمل والتفكير في الله ، كما قال ردايدة : " إخلاص التوبة ، ونية الأنابة أو القصد إلى الله تعالى ، والخلوة والذكر ، وجهاد الشيطان والنفس ، والدنيا ، فالعبودية شعارها الطاعة والورع والزهد والتوكل والرضا والمحبة " / (ردايدة /أعلام الصوفية /ص 377) . فهم أهل الله وخاصته الذين نظر الله إليهم نظرة فأغناهم عما سواه ، فطلبوا التقرب إلى الله لا إلى الذات .

وقد أخذت مفاهيم هذا الجدول نسبة 10.61 % وهي نسبة يكون لها مكانة معتبرة في المفاهيم إذا جمعناها مع مفهوم التميز 19.69 % ومفهوم الحرية 09.09 % تصبح نسبتها 39.39 % وهي نسبة عالية في مفهوم التصوف

تحليل الجدول رقم (5) : الاهتمام بالخلائق

هي من بين الصفات أو المفاهيم التي استنبطناها من عينة التعاريف لهذا التحليل وإنّ صفات هذا الجانب قليلة التعبير في التصوف ، كما وأنّها تتعارض مع

المفاهيم الخمس الأخرى للمتصوف ، وخاصة صفات التميز ، والانعزال والحرية فإذا ما وجه انتقاد شديد للتصوف فإنّه يصوب إلى عدم اهتمام المتصوف بالخلائق ويعتبر إنسانا سلبيا في الحياة .

إنّ الاهتمام بالعلائق مع الخلق قليل التعبير والاعتبار في المذهب الصوفي ونادر تمثّله في السلوك الصوفي، وكأن هناك تعارضا بين الاهتمام بالخلائق والتصوف ، فإن اهتمّ المتصوف بالخلائق وكأنّه غير متصوف .

يتميّز المتصوف المهتم بالخلائق ، وتحسين العلائق بالأشياء والعالم كما في الجدول 5 بأنّه شخصية توافقية وتكاملية يتحدى الحياة بكلّ ما فيها من معنويات وماديات، في حدود الزهد والتعبد لله ، فهو شخصية غير انعزالية ، وغير أنانية ، وحكيم في علاقاته مع ربه وعباد ربه.

يعتبر المتصوف بناء على هذا المفهوم متصوفا معتدلا في تصوفه ،وكأنّه ينطق بحكمة مضمون الآية القرآنية في قوله تعالى : " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك " /77 / القصص ، ويمتثل المتصوف لقوله (ص) " اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا " ولقوله (ص) " ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإنّ نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده " ./أخرجه البخاري. (نجاتي / الحديث النبوي وعلم ن / ص 299).

إنّ قيام المؤمن بالعمل لكسب قوته وقوت أهله فهو يسعى لإشباع حاجات بدنية ودنيوية فهو في آن واحد يحقق إشباع حاجاته الروحية ، وخلال ذلك فهو مهتمّ بتكوين العلاقات مع أفراد المجتمع ، وله الأجر في ذلك ، فهو بمثابة المجاهد في سبيل الله ، كما روي الطبراني في معجمه الحديث التالي : روي أنّ النبي (ص) كان جالسا مع أصحابه ذات يوم ، فرأوا شابا ذا جلد وقوة قد خرج مبكرا يسعى فقالوا ويح هذا الشاب لو كان شبابه وجلده في سبيل فقال (ص): " لا تقولوا هذا فإنّه

إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس،فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو ذرية ضعافا ليعينهم ويكفيهم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى تفاخرا ، وتكاثرا فهو في سبيل الشيطان " //(المرجع السابق /ص252) وكما هو ملاحظ في هذا الجدول رقم 5 بجميع عباراته لها مفهوم الاهتمام بالخلائق مثل تعريفهم: أخلاقهم إدخال السرور على غيرهم ، والإعراض عن أناهم ، فهم يقدرونك على كلّ حال ، وغير ذلك ونسبتها تساوي 09.09 % من مجموع عبارات الواردة في مفهوم وتعاريف التصوف (العينة) وهي نسبة قليلة جدا.

تحليل الجدول رقم (6) الحرية وفناء النفس في الله

إنّ الحرية في مفهوم المتصوفة يعني الخروج والانفلات من رق وعبودية الشهوات والتحرر من ملذات الدنيا من رغبة أو سعي وراء التملك ، والسلطة والزواج وزينة الحياة الدنيا ، وقطع جميع العلائق مع الأغيار سوى الله .

والحرية هي أعلى مراتب القرب إلى الله بمعناها الحقيقي ، وذلك هو فناء النفس من اجل العبودية لله ، وإنّ هذا المفهوم الصوفي وسلوك المتصوف وصفاته مرتبط بمفهوم صفات الانعزال واليأس بما في أيدي الخلائق ، والفرار من الناس ، وهذا هو المقصود بالحرية في مفهوم التصوف.

فالصوفي يشعر بأنّ دمه هدرا ،أي كأنه مقتول في أي لحظة ، أو أنّه يعيش بالروح فقط مع الله والذي يراعى أنفاسه في كلّ حين ، وكأنّ الموت محاط به من جميع الجهات في كلّ وقت فلا يكدره أي شيء ، ولا يصفو به كلّ شيء ، وكأنّه في عداد فاقدي الإحساس بما حوله وتستوي عنده حالة السفر والحضر ، أي الحياة والموت ، فهذه كلّها صفات حرية الصوفي ، فهو متحرر من الخوف من الموت ، فهو حيّ أو ميت في الحالتين سواء ، بمعنى أنّ جميع أموره الحياتية أو

في الممات فهي بين يدي الله ، وحكمه ومشيئته ، فهذا هو التصوف بمفاهيمه المتقدمة من فناء النفس في الله ولا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سبب .

وبمعنى آخر فإنّ الصوفي يسعى لإذابة ذاته وشخصيته بكلّ ما فيها في صفات الله ، كذوبان التبر ليصوغه من جديد بصفات الخالق متحررا من صفات البشر الممزوجة بالآثام والصفات السلبية .

وإنّ هذا التشبيه لا يدخل في مجال ما يصطلح عليه في الفلسفة ، الفناء والاتحاد والحلولية، ووحدة الوجود الذي اتهم به الحسين بن منصور الحلاج أبو المغيث (244 هـ /858 م) وشطحاته غير المفصول فيها .

وعليه فإنّ نسبة 09.09 % من مجموع ألفاظ العينة المحللة ليست بنسبة كبيرة وهي توازي في النسبة في الجدول الاهتمام بالخلائق ، وكأنّ صعوبة الشعور بالاهتمام بالعالم الخارجي والأشياء يساوي صعوبة الشعور بإذابة شخصيته وفناء نفسه في الله ، وهذه المرتبة يصعب الوصول إليها من قبل الكثير من المتصوفة الحقيقيين ، والكل يعبّر بما وقع له ، وبالتجربة التي مرّ بها ، والإحساس الذي أحسّ به .

وبهذا التحليل فإنّنا نأتي على جميع ما حللناه من العينة في الجداول ، وإنّ هذا التحليل ليس جامدا، فهو يبين بالأرقام الإحصائية أنّ مفهوم التصوف في الإسلام ليس له مفهوم واحدا ، أو تفسير واحد ، أو إحساس واحد لاتجاهه ، وموضوعاته الروحية والمادية ، وليس له ضابط واحد لدى جميع المتصوفة .

خلاصة :

يظهر ممّا تقدم أنّ مفهوم التصوف وشرعيته مستمدة من بعض الآيات، والأحاديث النبوية ، وهو الركن الثالث من أركان الدين ، وهو الإحسان أو التعبد لله خالصا ، وله صلة بالفقه الإسلامي ، وبتفاسير الأسانيد المتشددة في الشرع

وللتصوف ، ووصف المتصوف مفاهيم وتعاريف تعدّ بالمئات ، وتختلف باختلاف ألوان التيارات التي يعاصرها المتصوف ، إذ ليس هناك اتجاه أو موضوع واحد عام لفهم جوهره ، فهو يتحدد تبعا لمشاعر وانطباع المتصوف ، وثقافته وفهمه لطبيعة العالم والأشياء والمجتمع ، وما وراء الغيب .

نحن نحمل مفهوم التصوف حسب ما ظهر لنا من مضامين التعاريف المحللة (العينة) آنفا .

التصوف هو : طاقة روحية مكتسبة بالرياضة والاستعداد النفسي يدفعان المتصوف إلى عبادة الله خالصا مذيبا نفسه ليتقمص صفات الله إلى درجة تشعره بالتميّز ، وأنّ الله آثره على غيره ، كما يشعره كذلك من الداخل بأنّه البطل القاهر بإرادته القوية وبتوفيق من الله جميع أحاسيسه وشهواته وملذاته النفسية إلى درجة التحرر من جميع العبوديات من البشر وأشياء وسلطة ، وزهرة الحياة الدنيا ، فارا منها جميعا منقطعا إلى عبادة الله خالصا.

وقد يشعر المتصوف أنّ شخصيته لا تكتمل ولا تتزن إلاّ بالاندماج الاجتماعي بروحه التعبدية، وذلك صيانة لفقره وعوزه ، فذلك هو الجهاد الأكبر .

مراجع البحث

1- القرآن الكريم

2- إبراهيم مصطفى إبراهيم (1992) ، مفهوم العقل في الفكر الفلسفي ، ط ؟ دار النهضة العربية ، بيروت

3- أسعد رزوق (1979) ، موسوعة علم النفس ، ط 2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت

4- الحاج أحمد حسن شحادة ردايدة (2005) ، أعلام التصوف ، ط ؟ ، دار الكتاب الثقافي، إربد ، عمان

5- خليل الجر ، (1973) ، لاروس ، المعجم العربي الحديث ، ط ؟ ، مكتبة لاروس ، باريس

6- عبد الحليم محمود ، (1985)، التفكير الفلسفي في الإسلام ، ط ؟ ، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

7- علي زيعور (1979)، العقلية الصوفية ونفسانية المتصوف ، ط 1 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت .
8- فرج عبد القادر طه ، وآخرون (1980) معجم علم النفس والتحليل النفسي، ط 1 دار النهضة العربية ، بيروت .
9- محمد جلال شرف (1994) ، دراسات في التصوف الإسلامي ، ط ؟ دار النهضة العربية ، بيروت .
10- محمد عثمان نجاتي (1993) ، الحديث النبوي الشريف وعلم النفس ، ط 2 ، دار الشروق ، بيروت.